

الحلقة الخامسة والأربعون

أقوال المسيح

برنامج أنوار كاشفة

نرحب بك صديقي المستمع في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. يسرنا أن نتابع تقديم هذه السلسلة وهي تحت عنوان: «أقوال المسيح». لقد تكلم المخلص يسوع المسيح بأقوال عديدة مليئة بالحكمة، مما أثار إعجاب الناس من حوله، كما أكدت أيضاً على سلطانه الإلهي.

هل تعتبر نفسك مستمعي مؤمناً؟ وإلى أي حد تثق بالله خالقك؟ وفي حالة مرورك بتجارب قاسية هل يتزعزع إيمانك بالله وتفقد ثقته بك؟ وهل أنت مستعد لكي يمتحن الله إيمانك به؟ أم أن إيمانك هو مجرد إيمان تقليدي؟ فأنت مؤمن لأنك ورثت هذا عن آبائك وأجدادك.

أجل صديقي، هناك فرق بين إيمان وإيمان، وبالتالي بين مؤمن وآخر. فهناك أناس يؤمنون لأن العائلة والمجتمع من حولهم يتطلب منهم ذلك، أو لئلا يتهموا أنهم كفرة وملحدين. فإيمان هؤلاء هو إيمان تقليدي عادي، وقد يسقط عند أول امتحان. وهو ما ينطبق على معظم الناس. لكن هناك آخرون من لجأوا إلى الإيمان، واختبروه بشكل شخصي. وأصبح الإيمان بالنسبة لهم أمراً يمس صميم حياتهم من الداخل. وعندما تواجههم الأزمات الحادة والتجارب القاسية، فإن هذا يشدد من إيمانهم ويعضده بدل أن يزعه. ولكي نوضح ما نقول نود أن نورد الحادثة التالية من الإنجيل المقدس:

«ثُمَّ انصَرَفَ يَسُوعُ إِلَى نَوَاحِي صُورَ وَصَيْدَاءَ. وَإِذَا امْرَأَةٌ كَنْعَانِيَّةٌ خَارِجَةٌ مِنْ تِلْكَ التُّحُومِ صَرَخَتْ إِلَيْهِ قَائِلَةً: «ارْحَمْنِي، يَا سَيِّدُ، يَا ابْنَ دَاوُدَ! ابْنَتِي مَجْنُونَةٌ جِدًّا». فَلَمْ يُجِبْهَا بِكَلِمَةٍ. فَتَقَدَّمَ تَلَامِيذُهُ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ قَائِلِينَ: «اصْرِفْهَا، لِأَنَّهَا تَصِيحُ وَرَاعِنَا!» فَأَجَابَ وَقَالَ: «لَمْ أُرْسَلْ إِلَّا إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ». فَأَتَتْ وَسَجَدَتْ لَهُ قَائِلَةً: «يَا سَيِّدُ، أَعْنِي!» فَأَجَابَ وَقَالَ: «لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيَطْرَحَ لِلْكِلَابِ». فَقَالَتْ: «نَعَمْ، يَا سَيِّدُ! وَالْكِلَابُ أَيْضًا تَأْكُلُ مِنَ الْفُتَاتِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنْ مَائِدَةِ أَرْبَابِهَا!». حِينَئِذٍ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: «يَا امْرَأَةَ، عَظِيمٌ إِيمَانُكَ! لِيَكُنْ لَكَ كَمَا تُرِيدِينَ». فَشَفِيَتْ ابْنَتُهَا مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ» (بشارة متى ١٥: ٢١-٢٨).

سنأمل الآن بهذه الحادثة المثيرة.

يخبرنا الإنجيل المقدس في بشارة مرقس أن هذه المرأة الكنعانية التي أتت إلى المخلص المسيح كانت فينيقية سورية، من منطقة صور وصيدا التي كان المسيح يزورها. والمعروف في ذلك الزمان أن اليهود كانوا لا يتعاملون مع أبناء الشعوب الأخرى، وينظرون لهم بازدراء واحتقار. وعندما بدأت هذه المرأة تصرخ إلى المسيح طالبة الشفاء من أجل ابنتها، لم يجبهها المسيح إذ ترك الأمر للتلاميذ. لكن هؤلاء وكلهم من اليهود، طلبوا من المسيح أن يصرفها، فهم لم يبدوا أي عطف أو شفقة عليها.

وهنا نجد أن المسيح جازاهم في مشاعرهم، لكي يعلمهم درساً مهماً في التعامل مع الشعوب الأخرى. ولهذا قال للمرأة الكنعانية: «لَمْ أُرْسَلْ إِلَّا إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ». والحقيقة أن كلمات المخلص المسيح هذه لا تتعارض مع حقيقة أن الله قد أرسله لجميع الناس، هكذا أحب الله العالم، أي كل الجنس البشري. لكنه أراد أن يقول للمرأة أن اليهود يجب أن تكون لهم الفرصة الأولى لقبوله كالمسيح المخلص. لقد أراد المسيح بجملته هذه امتحان إيمان هذه المرأة الفينيقية. لكن هذه المرأة أصرت وأتت وسجدت للمسيح قائلة: يا سيّد أعنّي. عندها قال لها المسيح متابعاً امتحانه لها: «لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤَخَذَ خُبْرُ الْبَنِينِ وَيُطْرَحَ لِلْكَلابِ». وهنا أيضاً جرى المسيح تلاميذه اليهود بإطلاق وصف الكلاب على الشعوب الأخرى.

ومرة أخرى نجحت هذه المرأة بالامتحان عندما أجابت المسيح: «نَعَمْ، يَا سَيِّدُ! وَالْكَلابُ أَيْضًا تَأْكُلُ مِنَ الْفُتَاتِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنْ مَائِدَةِ أَرْبابِهَا!». فما كان من المسيح إلا أن امتدح إيمانها العظيم فقال لها: «يَا امْرَأَةَ، عَظِيمٌ إِيمَانُكَ! لِيَكُنْ لَكَ كَمَا تُرِيدِينَ». فَشَفِيَتْ ابْنَتُهَا مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ». لقد نالت هذه المرأة الفينيقية ما أرادت نتيجة إيمانها العظيم بالمسيح. وأبدت تواضعاً مذهلاً إذ قبلت على نفسها أن تكون من الكلاب التي تحصل على الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها، فقط من أجل الحصول على شفاء ابنتها. ولهذا لم يكن غريباً أن تنجح في امتحان الإيمان هذا، وأن يمتدح المسيح إيمانها العظيم.

مستمعي الكريم، لقد أراد المسيح بهذه الحادثة تلقين تلاميذه اليهود درساً بليغاً في التعامل مع الشعوب الأخرى، وفي نفس الوقت امتحان إيمان هذه المرأة الفينيقية. صحيح أنه قد أتى لليهود أولاً لإتمام وعوده لهم، لكنه في نفس الوقت فتح الباب واسعاً أمام الشعوب الأخرى إذا تحلّت بالإيمان، لكي تتال خلاص الله. ولهذا كتب البشير يوحنا قائلاً: «إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ، وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ. وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلَادَ اللَّهِ، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ (بشارة يوحنا ١: ١١ و١٢). أجل، لقد أتى المسيح أولاً إلى خاصته أي إلى شعبه القديم، لكي يبرئ ذمته تجاههم. لكنه أتى أيضاً للشعوب الأخرى، لكل من يؤمن.

وهنا نعود إلى أهمية الإيمان للحصول على خلاص الله. هل تعلم مستمعي أن الإيمان هو الأساس الذي نرتكز عليه للحصول على خلاص الله؟ إذ علينا أن نأتي إلى الله بإيمان قلبي صادق. أي نختبر الإيمان في قلوبنا، لكي يصبح إيماناً حياً فعلاً في حياتنا، وعندها نحصل على خلاص الله.

اسمع صديقي ماذا كتب الرسول بولس من رسل المسيحية الأوائل: «الْكَلِمَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، فِي فَمِكَ وَفِي قَلْبِكَ» أَي كَلِمَةُ الْإِيمَانِ الَّتِي نَكْرَهُ بِهَا: لِأَنَّكَ إِنْ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ، وَأَمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللَّهَ أَقَامَهُ مِنَ الْأَمْوَاتِ، خَلَصْتَ. لِأَنَّ الْقَلْبَ يُؤْمِنُ بِهِ لِلْبِرِّ، وَالْفَمَ يُعْتَرِفُ بِهِ لِلْخَلَاصِ. لِأَنَّ الْكِتَابَ يَقُولُ: «كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ لَا يُخْزَى» (الرسالة إلى رومية ١٠: ٨-١١).

يوضح الرسول بولس أن الحصول على خلاص الله ونوال غفرانه، لا يتطلب من الإنسان القيام بأي عمل صالح، أو بذل أي مجهود، لكنه فقط يطلب منه أن يؤمن. وبماذا يؤمن: يؤمن بالرب يسوع المسيح وبموته البديلي على الصليب وقيامته المجيدة من بين الأموات، فالمسيح مات نيابة عنا ليكفر عن خطايانا. وأنه عن طريق هذا الإيمان القلبي الصادق يحصل الإنسان على بر الله، أي يصبح مبرراً من خطاياه، وبالتالي ينال خلاص الله الكامل. لأن الله كما سبق له أن وعد: لا يُخْزَى أو يخيّب كل من يأتي إليه بالإيمان. فما أعظمها من عطية. فهل تراك تختبر مستمعي اختبار الإيمان المجيد هذا وتحصل على خلاص الله؟